روسيـــا وباكستـان: زواج المصالـــح

(**مجلة الشروق**، دار الخليج، الشارقة، ١٧ أكتوبر ٢٠١٦)

د. نـورهان الشيـخ*

أثارت المناورات العسكرية المشتركة بين باكستان وروسيا، "الصداقة-٢٠١٦"، خلال الفترة من ٢٤ سبتمبر وحتى ١٠ أكتوبر، والتى كانت الأولى من نوعها، العديد من التساؤلات فيما يتعلق بواقع ومستقبل التحالفات فى منطقة جنوب آسيا والتى كانت، تقليديا، تضع باكستان ضمن الحلفاء الاستراتيجيين للولايات المتحدة، وتباعد بين إسلام أباد وموسكو التى تعد شريك استراتيجى للهند، خاصة وإنها تأتى فى وقت تزداد فيه علاقات الطرفين بواشنطن توتراً، والعلاقات الباكستانية الهندية تأزماً.

وتبرز فى هذا السياق ثلاث دلالات هامة، أولها، استمرار التطور الملحوظ الذى تشهده العلاقات الباكستانية الروسية، والذى تعد المناورات تكليلاً له. ومن المعروف أن العلاقات بين البلدين كان يسودها التوتر الشديد لعقود طويلة نتيجة تأييد الاتحاد السوفيتى للسيادة الهندية على كشمير، ودعم باكستان "للمجاهدين" الأفغان فى مواجهة السوفييت. إلا إن السنوات القليلة الماضية شهدت تقارباً ودفئاً واضحاً فى العلاقات الباكستانية الروسية، كان من أبرز ملامحه توقيع اتفاق التعاون العسكرى التقنى بين البلدين عام ٢٠١٤، الذى مثل نقلة نوعية فى العلاقات بينهما إلى مستويات استراتيجية لم تكن متصورة من قبل حيث كانت باكستان من بين الدول التى تحظر روسيا تصدير السلاح إليها نتيجة موقفها من التدخل السوفيتى فى أفغانستان. كما تم قبول باكستان، ومعها الهند، عضواً كاملاً فى منظمة شنجهاى للتعاون التى تقودها روسيا والصين عام ٢٠١٥، والتى تهدف بالاساس إلى تعزيز التعاون الأمنى بين أعضائها فى مجال مكافحة الارهاب والتطرف.

وهناك مشروعات واعدة تدعم استمرار التعاون بين البلدين فى المستقبل، منها مشروع بناء خط أنابيب لنقل الغاز من إيران إلى باكستان بطول ١١٠٠ كم من كراتشي في جنوب البلاد إلى لاهور في الشمال، بتكلفة تقدر بحوالى ٢.٥ مليار دولار، الأمر الذى يمثل تحولاً هاماً فى العلاقات الروسية الباكستانية. كذلك صفقة المقاتلات الروسية من طراز "مى ٣٥ إم" لباكستان، والمباحثات حول شراء مقاتلات "سو-٣٥ "الروسية بدلا من "إف-١٦" الأمريكية التى رفضت

---

* أستاذ العلوم السياسية، جامعة القاهرة.

واشنطن تمويل شراءها. كما تبدى باكستان رغبتها في اقتناء تكنولوجيا الحرب الإلكترونية الروسية، وأكد المدير العام لإدارة المشاريع الإذاعية والاتصالات السلكية واللاسلكية الوطنية في باكستان، محمد مسعود، تطلع بلاده إلى تعاون طويل الأمد مع روسيا فى هذا المجال، والاستعانة بالتكنولوجيات الروسية المتعلقة بأنظمة المراقبة والتشويش وتحديد المواقع والطائرات بدون طيار وأنظمة جمع المعلومات السرية وغيرها.

يدعم التوجه نحو تعزيز التعاون بين الجانبين جملة من المصالح الحيوية لكليهما، فروسيا ترى فى باكستان فاعل إقليمى هام، وسوق واسعة لصادرات السلاح والطاقة الروسية ينبغى طرق أبوابها فى إطار المساعى الروسية لكسر الخناق الغربى عليها والتخفيف من حدة العقوبات المفروضة على خلفية الأزمة الأوكرانية، من خلال فتح آفاق جديدة فى جوارها وعمقها الآسيوى، واستغلال التوجهات الجديدة للسياسة الباكستانية نحو مزيد من التوازن فى علاقاتها بمختلف القوى الدولية والإقليمية فى تدشين شراكات اقتصادية وتعاون عسكرى وأمنى بين البلدين على النحو الذى يخدم مصالح الطرفين. من ناحية أخرى، تبدو باكستان حريصة على طى صفحة الماضى مع موسكو والاستفادة من الفرص المتاحة خاصة مع الصعوبات المتزايدة التى تكتنف علاقاتها مع الولايات المتحدة.

ويرتبط ذلك بالدلالة الثانية، المتعلقة باستمرار التراجع فى العلاقات الباكستانية الأمريكية على مدى العقد المنصرم، وخاصة منذ عام ٢٠١١ عندما قامت القوات الأمريكية الخاصة بتصفية زعيم تنظيم القاعدة أسامة بن لادن داخل الأراضي الباكستانية، وهو ما اعتبرته اسلام أباد انتهاك لسيادتها لكونه "عمل أحادى الجانب غير مصرح به". عزز من ذلك الضربات التي تشنها الطائرات الأمريكية بدون طيار والتي ترى باكستان أنها تزيد من المشاعر الشعبية المعادية للولايات المتحدة بها، وتسبب إحراجاً شديداً للحكومة الباكستانية، وإنها لا تقضى على الارهاب بل تزيد من عمليات التجنيد في التنظيمات الإرهابية حيث تسهم في تعزيز مشاعر التعاطف مع ضحايا هذه الهجمات، وهو ما تستغله التنظيمات المتطرفة. وفى تصريح غير مسبوق، فى ٢٦ نوفمبر ٢٠١٤، أعتبر وزير الدفاع الباكستاني خواجه آصف "أن الولايات المتحدة ليست حليفاً يمكن الوثوق به؛ فقد كانت حليفاً نسبيّاً لنا في الستينات والسبعينات، وكانت سياساتها في الشرق الأوسط وجنوب آسيا كارثية، وما زلنا ندفع ثمنها".

يتزامن هذا مع امتعاض واضح تبديه واشنطن من موقف باكستان إزاء الجماعات الارهابية، ورفضها الكف عن دعم طالبان، وغض الطرف عن تقدم تنظيم الدولة الإسلامية في مناطق من أفغانستان كانت الولايات المتحدة وقوات متحالفة معها قد ساعدت في تأمينها، الأمر

الذى يشيع أجواء من عدم الثقة المتبادلة بين البلدين، لاسيما مع إعادة توجيه دفة السياسة الأمريكية في جنوب آسيا بعيداً عن أفغانستان وباكستان باتجاه الهند. وبعد أن كانت إسلام أباد ثالث أكبر متلق للمساعدات الأمريكية، قلصت واشنطن من دعمها العسكري والاقتصادي لباكستان بشكل حاد في السنوات الأخيرة ليصل إلى ما دون المليار دولار عام ٢٠١٦ مقارنة بأكثر من ٣.٥ مليار دولار عام ٢٠١١ .

وفى ضوء استمرار الاتهامات الأمريكية لباكستان بالتقاعص فى مواجهة أنشطة مسلحي "شبكة حقاني" وحركة "طالبان" على أراضيها، ليس من المنتظر أن تعود العلاقات بين البلدين إلى سابق عهدها، على الأقل فى المستقبل المنظور. ومن المتوقع أن يقل حجم المعونة المدنية والعسكرية الأمريكية لباكستان، وكان رئيس اركان الجيوش الامريكية الادميرال مايكل مولن قد اتهم اجهزة الاستخبارات الباكستانية بدعم المسلحين المسؤولين عن الهجمات التي استهدفت السفارة الأميركية بكابول وأسفرت عن مقتل ٤٢ شخصا بينهم ٩ من المهاجمين. وأشار مولن إلى "أن شبكة حقاني تعمل كذراع حقيقية لوكالة خدمات الاستخبارات الداخلية" الباكستانية. ورغم أن الحكومة الأمريكية وافقت، في فبراير الماضي، على بيع باكستان ثماني مقاتلات "إف-١٦" ومعدات أخرى في صفقة تقدر قيمتها بنحو ٦٩٩ مليون دولار، إلا إن رئيس لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ الأمريكي، بوب كوركر، قال إنه سيستخدم كل سلطاته لمنع استخدام أي أموال أمريكية في هذه الصفقة"، فى تقويض واضح للدعم الأمريكى لباكستان.

أما الدلالة الثالثة، فتتعلق بمستقبل العلاقات الروسية الهندية فى ضوء التوتر المزمن فى العلاقات الهندية الباكستانية على خلفية الصراع التاريخى الممتد بينهما منذ أربعينات القرن الماضى حول إقليم كشمير، واتهامات الهند المستمرة لباكستان بـ"تصدير الإرهاب" وزعزعة الاستقرار في آسيا، والتى تصاعدت مؤخراً عقب مقتل ١٧ جنديا بهجوم شنه مسلحون الشهر الماضي على قاعدة للجيش الهندي في جزء من كشمير تسيطر عليه نيودلهي، واتهمت الهند جماعة "جيش محمد" المتشددة التي تعمل في باكستان بالوقوف وراء الهجوم، وهو ما نفته إسلام آباد.

ورغم تخوف البعض من تأثر العلاقات الروسية الهندية سلباً نتيجة الانفتاح الروسى على باكستان، فإنه من الواضح أن الشراكة الروسية الهندية نضجت واكتسبت قوة تكفل لها الاستمرارية والتطور فى المستقبل، ومازال لها مكان الصدارة فى أولويات الطرفين، إنطلاقا من اعتبارات برجماتية ومصلحية بحتة. فالعلاقات الهندية الروسية تتمتع بخصوصية شديدة، وتعتبر من الشراكات التاريخية الممتدة والمستقرة على مدى ما يزيد عن سبعة عقود، منذ الزيارات

المتبادلة للزعيمين نهرو وخرتشوف منتصف الخمسينات، وذلك رغم المتغيرات الإقليمية والدولية العاصفة من حولها، والتى كان أهمها وأبرزها تفكك الاتحاد السوفيتى وتحدى إعادة إطلاق الشراكة بين الهند وروسيا الاتحادية خلال حقبة التسعينات.

وتنظر روسيا للهند باعتبارها شريك استراتيجى هام وحجر زاوية فى ضمان الأمن والاستقرار الإقليمى فى منطقة جنوب ووسط آسيا، وتحتل العلاقة مع دلهى أولوية واضحة فى أجندة السياسة الروسية، وتضمنت القمة السادسة عشر والأخيرة التى عقدت فى موسكو فى ديسمبر من العام الماضى، وكانت أول زيارة رسمية لرئيس الوزراء الهندى ناريندرا مودي لموسكو، رسالة واضحة حول ثبات التوجه نحو دفع العلاقات بين البلدين قدماً، انعكست فى الإعلان المشترك حول "الآفاق الجديدة للثقة المتبادلة" بينهما، وتوقيع سبعة عشر اتفاقية لتعزيز التعاون فيما بينهم فى مختلف المجالات، وقام الرئيس بوتين بإهداء رئيس وزراء الهند صفحة من مذكرات غاندى بخط يده، وسيف أثرى صنع فى البنجال يعود إلى القرن ١٨، فى إشارة رمزية إلى عمق العلاقات التى تربط البلدين.

ويمثل التعاون فى المجال العسكرى التقنى عصب الشراكة المتنامية بين الهند وروسيا والعمود الفقرى لها، وتعتبر الهند أكبر سوق للسلاح الروسى، وتعتمد ٧٠% من القوات المسلحة الهندية على الأسلحة وقطع الغيار الروسية، ووفقاً لتقديرات الهيئة الفيدرالية الروسية للتعاون العسكري التقني، بلغت قيمة صادرات السلاح الروسية للهند حوالى ٤.٧ مليار دولار عام ٢٠١٤. كما يتضمن التعاون بين البلدين التصنيع المشترك ونقل التكنولوجيا الروسية للهند، وتعتبر روسيا الدولة الوحيدة التى تتعاون مع الهند فى مجال التصنيع العسكرى المشترك ونقل التكنولوجيا الخاصة بذلك لدلهى، وهى الوحيدة التى تدعم مبادرة "يصنع فى الهند" التى أطلقها رئيس الوزراء الهندى لتطوير الصناعات العسكرية الهندية. ويعمل فى قطاع الصناعات العسكرية المشتركة حوالى ٣ مليون عامل، وتمثل ٢٠% من إجمالى الانتاج الصناعى فى البلاد. ومن الأسلحة الروسية التى يتم تصنيعها وتطويرها فى الهند المقاتلات الروسية مثل مروحيات كا-٢٢٦ تى، ومقاتلة تى-٥٠ الشبحية التى تنتمى إلى الجيل الخامس من الطائرات المقاتلة، والطائرات "ميج-٢٩"، وطائرة نقل تكتيكية من نوع "إيل"، والدبابة "ت-٩٠أس". ويعمل البلدين منذ أواخر عام ١٩٩٠ على انتاج الصاروخ الروسي الهندى "براهموس" الأسرع من الصوت، وتم تسميته بهذا الاسم نسبة إلى نهرى براهمابوترا وموسكو، وهو صاروخ فريد من نوعه ويمكن الحاقه وتركيبه فى الغواصات والسفن والطائرات، ويصل مده إلى ٣٠٠ كيلومتر، وقادر على إصابة الأهداف على ارتفاع ١٥ كيلومترا، واعتمد بالفعل في البحرية الهندية.

على صعيد أخر، تعتبر الهند من كبرى مستوردى الطاقة فى العالم حيث تستورد ٨٠% من احتياجاتها النفطية، وتزداد هذه الاحتياجات باستمرار مع اتساع عملية التنمية وتسارع عملية النمو الاقتصادى بها، فى حين أن روسيا هى أكبر مصدر للغاز وثانى أكبر مصدر للنفط فى العالم ومن ثم يعتبر قطاع الطاقة من أبرز مجالات التعاون بينهما لتلاقى مصالح البلدين. وتخطط الهند إلى التحول للاعتماد بالكامل على الغاز الطبيعى والطاقة النووية خلال العقود الثلاثة القادمة، وتعتبر روسيا الشريك الأمثل فى هذا الخصوص، وتأمل دلهى فى إقامة خط لنقل الغاز من روسيا إلى الهند مباشرة عبر غرب الصين. كما تعتبر روسيا الشريك الأساسى للهند فى تطوير قدراتها النووية للاستخدامات السلمية، وهى التى تقوم ببناء محطة الطاقة النووية كودانكولام (KKNPP)، ورغم مباحثات الهند مع كل من الولايات المتحدة وفرنسا لتطوير التعاون فى هذا المجال فإن محاولات الهند لم تكلل بالنجاح حيث لم يقبل الغرب بطلبات الهند الخاصة بإشراك الهنود فى إنشاء وتأمين المفاعلات، فى حين قبلت روسيا بهذا.

ولاشك أن التعاون بين البلدين فى مختلف المجالات على النحو السابق بيانه يمثل رابط عضوى بينهما، يدعمه ويعضده تطور ملحوظ فى الأطر التى تجمعهما معاً، فمن رحم المثلث الاستراتيجى "روسيا – الهند – الصين"، الذى دعا إليه وزير الخارجية الروسى الأسبق، يفجيني بريماكوف، عام ١٩٩٨، تطورت عدة أطر تجمع البلدين أبرزها مجموعة "ريك" (RIC)، ومجموعة "بريكس" (BRICS)، ومنظمة شنجهاى للتعاون.

فى ضوء ما تقدم، فإن العلاقات بين الهند وروسيا مرشحة للتطور فى المستقبل، وهو ما عكسته بوضوح القمة الأخيرة بين زعيمى البلدين بموسكو فى ديسمبر الماضى، وذلك رغم ما يشير إليه البعض من حدوث تحول فى السياسة الهندية باتجاه شراكة أكبر مع الغرب وواشنطن قد تكون على حساب شراكتها مع روسيا. ويستند هؤلاء إلى تكرار زيارات رئيس وزراء الهند، ناريندرا مودي، لكل من الولايات المتحدة وفرنسا، والصفقات التى أبرمتها دلهى مع الولايات المتحدة وفرنسا واسرائيل واتجاهها لتعاون عسكرى أوسع نطاقاً مع هذه الدول. فخلال الفترة من ٢٠١٢–٢٠١٥ وقعت الهند إجمالى ٦٧ عقداً لتوريد الأسلحة منها ١٨ عقداً مع روسيا، و١٣ مع الولايات المتحدة و٦ مع فرنسا، إلى جانب مجموعة أخرى من الدول منها اسرائيل، ومن هذه الصفقات تلك الخاصة بشراء الهند ٣٦ طائرة مقاتلة فرنسية الصنع من طراز رافال، وهى الصفقة التى تم بحثها خلال زيارة الرئيس الفرنسي فرانسوا هولاند إلى الهند فى يناير من العام الجارى، وتقدر قيمتها بحوالى ٩ مليار دولار. أيضاً إجراء مناورات "مالابار" المشتركة بين الهند والولايات المتحدة واليابان فى أكتوبر ٢٠١٥ قبالة الساحل الشرقي للهند، والتى شاركت فيها حاملة الطائرات الأمريكية "تيودور روزفلت" وطراد يحمل صواريخ وغواصة تعمل بالطاقة النووية.

إن تقارب الهند مع الولايات المتحدة يأتى فى إطار رؤية هندية للتوازن الفعال فى سياستها الخارجية، حيث تحتفظ بروابطها الاستراتيجية العميقة وشراكتها مع موسكو، فى الوقت الذى تقوم بتطوير علاقات دافئة ومتنامية مع الغرب وخاصة واشنطن. وخلال مؤتمر صحفى لوزيرة الخارجية الهندية فى ٢٠ يوينو الماضى، ورداً على سؤال مباشر حول إمكانية تحول الهند عن الشراكة مع روسيا، أكدت سوشما سواراج أن العلاقات المتنامية بين الهند والولايات المتحدة فى المجال العسكرى وغيره من المجالات لن تكون على حساب علاقات "الصداقة" مع روسيا، وأن القضايا المتعلقة بالمصلحة الوطنية للهند وإلتزاماتها الخارجية غير قابلة للمساومة. وسبق وأن رفضت الهند الانضمام إلى العقوبات التى فرضتها واشنطن وحلفائها فى أوروبا وآسيا على روسيا على خلفية الأزمة الأوكرانية، وشاركت قوات هندية فى احتفال موسكو بالذكرى السبعين للانتصار فى الحرب الوطنية العظمى فى ٩ مايو ٢٠١٥، رغم الضغوط الشديدة التى مارستها الولايات المتحدة على مختلف الدول وخاصة حلفائها لمنعهم من المشاركة فى الاحتفالات الروسية.

إن النمو المضطرد فى العلاقات الباكستانية الروسية يمثل تطور مفصلى فى خريطة التحالفات وتوازات القوى فى منطقة جنوب آسيا، سيمتد تأثيره خارج النطاق الآسيوى إلى دوائر إقليمية ودولية أوسع مدى وأعمق تأثيراً. وقد يتيح هذا التطور لباكستان طى صفحات من تاريخها وتدشين سياسة خارجية أكثر توازناً وفاعلية، تمكنها من تلبية متطلباتها الأمنية واحتياجاتها التنموية. وقد يمثل هذا خصماً من تحالفات واشنطن الاستراتيجية التى يبدو إنها تتقلص فى آسيا وخارجها، فى حين يمثل إضافة لشبكة الشراكات والتحالفات الروسية التى تتمدد فى متوازيات لتشمل عدد من القوى الفاعلة إقليمياً، والغير متوافقة مع بعضها البعض بالضرورة، فموسكو لا تستبدل إسلام أباد بنيودلهى، ولكنها تقتنص فرصة سانحة لاستقطاب باكستان وملئ الفراغ الذى تركته واشنطن عندما أدارت ظهرها للأخيرة، مع الاحتفاظ بشراكتها التقليدية مع الهند على النحو الذى يعظم مصالحها الاقتصادية والأمنية.